فى ذكرى غزوة بدرالكبرى

obeikandl.com

obeikandl.com

فى ذكرى غزوة

بدرالكبرى

شُرِعَ القتال فى الإسلام لتأمين حرية العقيدة ، ولحفظ حرمات المسلمين وتأمين حياتهم ، ولهذا أمر الله المسلمين أن يكفوا عن القتال ، عندما يبدى الأعداء استعدادهم للالتزام بما يحقق هذين الهدفين ، يقول الله تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال : 61]

فلو استعرضنا جميع الغزوات والحروب التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم ، لوجدنا أن المسلمين لم يشنوا القتال حُباً فيه ، أو إكراهاً لغيرهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما كان استخلاصاً لحق مسلوب ، أو ردًّا على اعتداء غاشم ، أو تأديباً لمن يفكر فى الاعتداء (أى هجوماً وقائياً) ، أو عقاباً على نقض عهد أو ميثاق .

فغزوة بدر الكبرى – وهى أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين – كانت لاسترداد ما اغتصبه المشركون من أموال المهاجرين ، فكانت لرد الظلم الذى وقع على المسلمين ، يقول الله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج : 39]

فالإذن بالقتال كان استخلاصاً لحق سُلِب منهم ، وردًّا على ظلم وقع عليهم ، يقول تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة : 8-9]

كما كانت هذه الغزوة أيضاً عملاً على طريق حرية العقيدة ، لأن الله أراد أن يشعر أهل مكة – عن طريق تعرض المسلمين لعيرهم – أن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فينبغى عليهم أن يسارعوا بمهادنتها حتى لا تتعرض قوافلهم للخطر . وفى المهادنة ، أو الاتفاق على عدم التعرض عن طريق إبرام عهد بينهم وبين المسلمين اعتراف بقوة المسلمين وشرعيتهم يتطلب من المشركين عدم التصدى للدعاة إذا جابوا المنطقة يدعون إلى الله . وفى ذلك خلق للظروف التى تهىء للناس جوًّا يستطيعون فيه أن يختاروا – دون ضغط أوإكراه – ما يعتقدونه ، ويعلنون ذلك دون خوف من أحد .

فخروج جيش المسلمين إلى عير قريش لم يكن لإجبار أحد على الدخول فى الإسلام ، كما لم يكن للاعتداء على أحد بدون وجه حق ، وإنما أريد منه تحقيق عدة أهداف ، وهى :

- استخلاص حقوق المسلمين التى سلبها منهم أهل مكة لو ظفروا بالعير .
- إشعار أهل مكة بأن هناك قوة على طريق تجارتهم إلى الشام ، فلو لم يسارعوا فيتفقوا معها على أسلوب يضمن حرية كل طرف فى أن يعرض أمره للناس ليختاروا مايرونه صحيحاً ويتركون ما وضح بطلانه ، لأصبحت تجارتهم فى خطر .

ولو تم هذا الاتفاق لكان ذلك نجاحاً للدعوة فى خلق مناخ صالح لحرية العقيدة .

لكن عندما أفلت عير قريش ، فلم يدركه جيش المسلمين ، وجاءت قريش بخيلها وخيلائها يريدون قتال المسلمين ، حتمت هذه الظروف على المسلمين أن يخوضوا المعركة ، وإلا أصيبت الدعوة بنكسة ، قد يكون فيها القضاء عليها ، فقتالهم فى هذه الظروف كان واجباً للدفاع عن وجود العقيدة ، ولدفع ما قد يترتب على النكوص عنه من فساد مشركى مكة ، إذ لو امتنع المسلمون عن القتال لضاعت دعوتهم بعرور المشركين واستعلائهم ، واستغلال هذا النجاح فى تمكين الطغيان والفساد فى الأرض .

ومن حكمة الله أن جعل العير تفلت من أيدى المسلمين ليكون درس لقتال عبرة لمن يفكر فى الاعتداء على المسلمين ، فتعلو كلمة الله فى الجزيرة العربية ، يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال : 7 7]

وبهذا يتبين أن المسلمين لم يخرجوا من المدينة للاعتداء أو السلب ، وإنما كان لاستخلاص حق من حقوقهم المسلوبة ، ولتأمين حرية الدعوة ، فلما اضطروا للقتال قاتلوا حتى يحموا أنفسهم ، ويحافظوا على هيبة الدعوة فى الجزيرة العربية ، يقول الله تعالى :

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة : 2]

فلو نكص المسلمون عن القتال فى هذه الظروف لحكم عليه التاريخ بأنهم أُذِلُّوا وأُهِينوا فرضوا بالذل والهوان ، وتلك سبة تأباها الطبيعة الإنسانية . ولما كان الإسلام موافقاً — فى تعاليمه وشرائعه — لهذه الطبيعة لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة ، فشرع لهم القتال دفاعاً عن أنفسهم وعقيدتهم ، وليس إكراهاً لأحد على الدخول فيه .